ديزيره سقال

أناشيد الأرض والدم



٢٠٢٠

ديزيره سقال

أناشيد الأرض والدم



٢٠٢٠

أناشيد الأرض

تستنجد الأشياءُ بالليل في مدًى مزروعٍ بأعمدة الهباء، وينقبض الصمتُ على رجفةٍ من بريق الأسلحة. يهبّ الفراغُ، والمدى أقنعةٌ ونيازك.

هي
"الحرب"
بطيئًا
بطيئًا
تحتلّ الكائنَ،

وفوران الطينِ يخرج من أحجام المأساة. ألا لا تستنجدوا بالليلِ، فأنتم مسدَلون على مداخل الفراغ الميْتِ، حولكم شموسٌ مُطْفأةٌ، حولكمْ رمادٌ... ولكنّ الكائنَ يعودُ إلى ذاته مضرّجًا بالنحيب، يقطرُ الأشياءَ وينهبُ المسافاتِ بين الحدّ والحدّ. ألا لا يُغوِكمْ هبوبُ الحديد، فالفضاءُ يخلعُ السنونو عن جبينه، والصقورُ تخرجُ من عينيه مسجّاةً. ألا انفضِ الظلامَ حولكَ، أيّها الشريكُ القتيل، فالجسدُ يترك حدوده، والليلُ تدَحّى في الورَع... ستُبارِكُ عرباتِ الفطر عندما يرتطمُ الجوهر بالباطل؛ سينتهِبُكَ هذا الصدى بين حراشفِ المذبحة.

وماذا يبقى من أسراب الرشإ يوم ينسلخُ الكائنُ عن الكائن، ويرجلُ في مجونِ الأرض؟ –

هيَ الأرضُ
تخرج من الخلايا
طَعينةً بالدهشة القاسية.

هي الأرضُ تواكب هَرْجَ البَوار، والطيرُ تخفق في مَسيلِ دمٍ يابس. هوذا الرمادُ يخرجُ من غاباتِ القصب، يصيح: "أيّها الليل، لعلّكَ لم تُخفِ النارَ في في أدغال الأقنعة، لعلّك لم تُسدل على العينِ ستارةَ المجاعة

والخوف. أيّها الليل، كنْ واقفًا بيني وبين الكائن، وانثر الطيرَ أو بقاياه، واكسُ العراءَ بقميصٍ من اليقظة العمياء." هوذا الرمادُ يقارعُ الأرضَ بالكائن، وينثرُ الجسدَ على التراب. وكم تركنا معًا أرصفةً من مواكب الزهر قبل أن تأسنَ الزوايا، وينحجر الزمنُ في الفضاء المخثَّر. كم ركضنا معًا على شفير الصدى، نقبض على الهواء، ونفتح الأبواب لأشياء الذهول. ألا لا يخرج الرمادُ بعدَ هذا إلا حاملًا بقيّة من خشب السيف المكسور، ماسحًا بأصباغه تاجَ المساء. ألا لا يخرج المهرّج، فليس سوانا مَنْ يفتح الهبوبَ للهبوب، ليس سوانا منْ يُبيح المراثي لأسراب الطيور، آنَ تندرجُ المهزلةُ البشريّة في الهبوب.

ولكنّ الأرض

تستيقظ

في

لغطِ

المذبحة،

والجذورَ تحتضن بردَ التراب، ترحل في هبوب الخواء، والجسدَ يبكي ويبقى خلفَ التيه، خلفَ الجهاتِ يراقب السُدى. كانت الجذور هجرةً إلى جهة الدمِ في حصار اليباس، تتراجع خطوةً خطوةً إلى الفضاء الأرجوانيّ. لن تبقى بوصلةُ الّا لتشير إلى الكائن المكسور، لن تبقى جهةٌ إلّا لتقودَ إليه، لن تبقى درب...

هو الكائنُ يشير إلى الكائن، حيث تمسحُ الأجراسُ غاباتِ الحور، وتهيّج مفاصلَ الزوبعة، وتكسر العظامَ.

(كنتُ أخرجُ من نعاسي إلى مدًى يحتلّ مدارَ النسيج، والأشكال تتّجه نحوي، تتلاشى وهي تتّجه. كنتُ أستحِمّ في التهليل، مطارِدًا المسافاتِ، مطرِّزًا نجومَها بالألَق، حيثُ لا حصارَ حول مدينة الكائن.

وأذكرُ

أذكرُ بهاءَ الوطن الذي سرقه الأنبياء، أذكر عريَ النساء وهنّ يستَحمِمْنَ في كوثر الشمس، يرضعْنَ من نشوة النجوم وأحلامِ الأجراس. أذكر المدى الضيّقَ الذي فتحناه وزرعنا فيه الزوابعَ. أذكرُ بيروتَ يومَ التَمّتْ في سريرِ المدى عروسًا كالحوريّة.

وأذكرُ

أذكرُ كلّ هذا الألَق... أذكرُ الفضاءَ يفتح جانحيهِ ليحتضنَ الصقورَ، والشمسَ تعانقُ البُعدَ المذهَّبَ. كلّهم

كانوا ينسجون فضاء المسافاتِ؛ كلّهم كانوا يحلمون بالصباح...)

لكنني

أستيقظ في سرير الدم حاملًا هبوبَ الأسلحة، أُهشّم الأشكالَ في هجرةٍ تبكي، مطرّزًا الدموعَ وهي في أطوار الهبوب، ويخطو الحَجَل الزاهي كالأقحوان في الظنّ... لكنّه يستيقظ، مثلي، على اليقظة الحيّة وهي تحطّ في جهات الرماد،

تحطّ
في دوّامة الكابوس الرصاصيّ.

هكذا تُعقَدُ الهدنةُ بين المهرّج والموت، ويدخل الليل العشبَ، وتلتمس الجهاتُ مدارَ الصواعق، وتلتقي بذورًا ميْتةً في زوايا المدى. وكنتُ القابضَ على الخطافة الكائن وهو يحلم بالصنوبر والبراري؛ كنتُ الرائيَ عندما راح الوروارُ يلوّن جرحَ الفضاء الأعمى. ها أدخلُ بوّابةَ الحشرجة، معانِقًا ضيقَ الأفق. ها أستيقظ، ولكنّ هبوب

الأسلحة يحتفظ بي في هجوع طويل... طويـ...يـ...
ـل...

وأنتِ، أَيَّتُها الســـماءُ التي هاجرت نحوَ أشـــلاء
حلم قتيل،
هَلُمّي...
ساعةَ يكتنز الصمتُ تاجَ الهروب،
هلمّي...
سنَمسَحُكِ بالصديد، سنُهْرقُ حولكِ الرعبَ
والضجيجَ فتخرجينَ من ريش الطيرِ مولوِلةً معَ أسرابه

المشدوهة. أيَّتُها المرمِيّةُ على حافة الزمن، لَيَضرِبَنَّ الحصارُ جذورَه في عينيكِ، لَتَهْمُدَنَّ فيكِ أشياءُ المدى حتى ساعةِ البكاءِ الأخير...

(كان الهواءُ يســـتحيل عَفَنًا، والدمُ يتراجعُ بريقُه خطوةً خطوةً،

لهاثٌ، لهاثٌ،

لهاثٌ هذا المدى والأرضُ

لهاثٌ، والصدى بابُ الآتي،

لهاثٌ، لهاثٌ،

يختصرُ الأشكالَ، ينتزعُ الجذورَ، لهاثٌ،
يتبرّك بالدم المحرورَ، يهذي في
خطواتِ الزنابق، لهاثٌ، لهاثٌ
يفتحُ السديمَ على ليل موغلُ في السديم،
وعربةُ التعب تنتظرُ خروجَ أَلوانِ الوراورِ من جدار الدجى، حين يستيقظ العرَقُ في جسد الكائن، ويَعمى الضوء على انحدار الأرض. كان الهواءُ في هذا التاريخ تماثيلَ تصطنعُ النبضَ...)

الأرض تخرج من مدار النحاس، والفضاء يعبر الحلمَ

هاويًا

هاويًا

هاويًا في خندق اليقظة الثقيلة. كانت بيروت امرأة تخترق نسج الضياع، تجمع الخرابَ حول عينيها. وداعًا، وداعًا أيَها الطفل، سنجلدُكَ بالهدير، نترككَ للمسافات والزمن. سوف نسلبكَ سطوعَكَ كلّه، ودبيبَكَ كلَّه على أرض برّاقة. وداعًا، أيّتها الينابيع، آهِ، اختصري المسافاتِ، اختصريها في زعيق الأسلحة.

هاويًا

هاويًا،

أُطَعِّم الغربةَ ببردِ المدينة، وموجُ الصواعق ينكسرُ على الفراغِ والحصار، والخلايا تسكن الذهول، والمدينة تدخل حصارَ الكائن...

هاويًا

هاويًا

أَنفجرُ في اللهاث، أقدّس الحشرجة. ويطوي الدجى زنابقي، يحني أعناقَها تحت المذبحة. أتقدّم نحو

الكائن، في انخطافة المدار، ووحيدًا أُمسكُ بالليل، أشبكه بأنفاسِ النّرجس. وحيدًا أنزلق على الطحلب، أرحل في غيبوبة البرد. وحيدًا أرى ولا أرى

حيثُ

الأرضُ

تبسطُ رحيلها كثوبِ العذارى،

تتدلّى

في

سرير

التواصُل...

والتواصلُ شبحٌ! والتواصُلُ أَلِفٌ من مذبحة الصدإ، ياء في طعنة البداية... التواصلُ حجرٌ، وجهٌ لأقداسِ الموت... وكان أنْ حلمنا بالعنف يقرع المدى. كان أنْ دخلنا في العنف، واقِفَين على باب الصلح الأبله...
ونكسو الرمالَ بالرمال،
نكسو القناعَ بالنبوّة الدامية.

وعندما ندخل بهوَ الصباح نصيح: "أيّها
الطيشُ، أيّها الخرابُ
ٱلمكسُوّ بزبَد الصهيل، تهَدَّلْ حولَ

هذا اليأس، وَلْتَكْسُ الهبوبَ
العاشقَ بسيف المذبحة."

(كانت الأرض شكلًا مستديرًا، حاملًا ترفَ الملامح إلى نواحي الخراب. وحدها كانت تتفسَخ حول الكائن، ترحل في المهبّ. وحدها كانت الأرض في البطش المسجّى تصدع الهبوب، وتحمل رائحةَ العطش وغيبوبةَ الحضور. وحدها وحدها كانت ترتشف أحماضَ الأسلحة، والترابَ الذي هندَسَهُ الضَياعُ. ثمّ جاءت السحاباتُ تكحلُ أسى الجنوب.

رويدًا

رويدًا

أيّها

الحاضرُ

المَلولُ،

سيدخلُ التوأم في حطام التوأم. فلتَكنْ هذه الخطى بين أشجار السروِ الجريحِ أشدّ إيغالًا في الرمل من قَرْعِ الحديد. لتكنْ، لتكنِ الإباحةُ في دُنُوّ الخصومة، ولْينهض "الغامض" من بهو المساء.

هكذا يكتمل الحضور في انحدارٍ عارمٍ عارم، وتنكشط عن الأرض جلدتُها. هكذا تتحوّل الشمسُ عن ترهُّل الهندسة، ويسقطُ الكائن...)

أعيدوا معي، أيّها الحاملون لهاتَ المعادن، أعيدوا معي بقيّة القصف العادل، ولْيهدإ المساءُ في حفنة من طَلّ الفجر. لكنْ، عندما انطفأ الأفول، خرجت الكائنات السريّة، وفاجأت الغابات حضورًا ثقيلًا واشتعالًا. هكذا انعقدت المذبحة بين الكائن والكائن.

هكذا انصبّت أحابيلُ الجهاتِ في ترّهاتِ الصخب الدامِس.

هكذا

عارمًا

عارمًا

أفصل

الأرضَ

عنِ

الأرض،

وماذا يرومُ الحيّ إلّا عودةً إلى طفولة تظلّ مشتعلةً؟ ماذا سوى هبوبٍ، بعيدًا عن رتاج المساء؟ لكنّكَ هَتَفْتَ: "لَبّيكَ! لَبّيكَ أيّها النّزفُ الأرجوانيّ في تَعاقُب "الغابة" وانحسار "المقبرة". لَبّيكِ يا ماشيةً من الغضب الغامض."

هاويًا

هاويًا

أستغرقُ في الأرض، رافعًا هبوبَ الصدى. وبين فسيفساء الجوع والرماد، أحصدُ عطشَ الينابيع وأناشيدَ

الردى والتوأم. أَلّا قرأتَ، أَيّها المهرّج، بقيّة المهزلة، وفضَضْتَ صخبَ التاريخِ عن بلاهةِ عينيكَ، أَلّا رفعتَ امتداحَ الباطل، وهببتَ خارجًا من حطامك إلى أَرضٍ خلفَ مدار الحطام... لَأَنتَ بلاهةُ الرعد في صُوَر البوار. لَأَنتَ الفأسُ والجذعُ المبتورةُ والقَرْعُ. لكَ الآنَ طَوقُ المراثي. لكَ الآنَ هذا الجسدُ المفسّخ. لكَ الآنَ أيقونةُ الأباطيل. ألا مُدَّ إلينا عَبَقَ السديم، ألا مُدَّ المدى النابضَ في سطورِ النبوءةِ، ولْتَكُنِ العرّافَ، لِتَكُنِ الجهاتِ مرفوعةً على بوّابة الأعالي.

هناكَ في ليل المجاعة، تنجذر الأرضُ، تتساقطُ حولَ ريش السَّمَنْدَل، تُنتَزَعُ من صدر الفضاء. هناكَ، تخرج الأرضُ إلى نفسها، ويسطع الكائنُ في دُجُنّة الهوّة. هناكَ ترقدُ الجهاتُ عَطشى، ويمتدّ الكائنُ إلى الطينِ المطّاطِ حيثُ الهجرةُ يضبطها الهذيانُ، وترحل الهيولى مُشَلَّأَةً إلى القمر المتداعي...

هناكَ

في أحلامِ المعدِنِ القاسي،

في هبوبِ الحديدِ،

تنسدلُ بيروتُ في زوايا القلب، تلبسُ فضاءَ الجرح على إِجْهاضِ الزمن. ألا يبقى من عينيها سوى هذا

السطوعِ المخيف؟ وكيفَ كانت الدرب تنحني عليها، تغلّفها اليَرَقاتُ، وتستديرُ حولَ قدميها الخلاخيلُ؟ كيف كانت البراعمُ تندفعُ في جوعها...؟ لِيَكُنْ بعد نزيفِكِ صَلَفُ الرعدِ وانتشارُ الحَتّ. ليكُنْ بعدَكِ سُكْرُ الأفولِ، أيّتها الجاريةُ الحوريّة، فنهتفَ: "غَرِقَ الفضاءُ في حطام المسافاتِ، وفرّت الرايةُ، أَيُّها الخارجُ من أحشاءِ الكائن، أَيُّها الصاعدُ في دمهِ إلى هجرةِ المدى الأقصى، إلى غاباتٍ كاذبةٍ من الحلم والموج والزبد. غرقَ الفضاءُ، والجرحُ ما زالَ حيًّا يبكي في أعضاء الحنين." لكنّ الأرضَ فُسوخٌ وحديد، والبحر يحمل إلى وجومها من التضرّج قرمزًا لاهبًا. آهٍ، آنَ أصعدُ أَشباحَ الغابر، آنَ أَرتدُّ إلى

انغلاق الدائرة، مُنسابًا من خلَلِ الأحجام، يهبّ النفيرُ من غيومِ النحاس، وينهلّ الصدى على مدينةِ الذعر.

آآآآهٍ!

هذا المساءُ القاسي يُخاطُ إلى قميصِ الفضاء الأسود. ليَكنْ، إذًا، البرقُ شَهقًا وعكاكيزَ لزمنٍ أعمى، ليكُنْ في وجوهنا أَشهى إلينا من الجوعِ، واخرجْ، اخرجْ، أيّها الليل، هاتِ وَليدَكَ مليئًا بالقشّ والصدى.

وماذا يخبرنا الكوكبُ الأبلهُ عن طفلٍ يركض وراءَ عينيه، ويحلم بالبحيراتِ يغلّفها زهرُ اللوتُسِ والصمتُ الطبيعيّ. يركض الطفلُ حولَ مَدارجِ القصب؛ ينفلتُ من شهيقِ الأسلحة. يركض الطفلُ، ولكنّه يتوقّف عندَ نهاية اللوحة، عند الحائط الأخرس، في آخر المدى القصير، وهو ما زال يحلم بالبحيرات الخضراء واللوتس. ويحترقُ الفَراشُ في عينيه، يَيْبَسُ الجوُّ وينكسر... أَتُراهُ، في أقصى النباتِ، تُراهُ كان يركضُ في سواعدِ الفقراءِ باحثًا من أَجلهمْ عن رغيفِ الجياعِ؟ آآآآهٍ!

أيّها الطفل الغارقُ في الوجوم!

كانت الأرضُ تنحسرُ عن صَدرِ الفراغ، والكراكي تبتهج في ندًى واهِم. كانت الأرض هَجعةً خلفَ بحر التثاؤب والملالة، وبيروت مرآة لاغتصابِ الجسد. كانت الغصونُ خارطةً، وأَرخبيلُ الأشياءِ يرحلُ في انبلاجِ الفاجعة –

لهاثٌ، لهاثٌ،
لهاثٌ يوشّح المهزلةَ، لهاثٌ
لهاثٌ يُلمَحُ بين الكائنِ والأرض،

يحملُ الجسدَ المفكَّكَ، ويرواح. لهاثٌ
يفتحُ المساءَ، لهاثٌ
لهاثٌ يقتسمُ المسافاتِ، يطعنُ الحجرَ
بغيبوبةِ المألوف، لهاثٌ، لهاثٌ...
والتعبُ يتهدّلُ من أجنحةِ الوروار،
يخرجُ من غبارِ الحطام،
والتعبُ تأشيرةُ الكائنِ في سلّم
الدخولِ المريرِ إلى الموت،
لهاثٌ،
لهاااااثٌ
يقرعُ جدارَ الزمن، يتحسّسُ القشعريرةَ،

يغيب في الرياء...

والأرضُ هامشٌ بعيدٌ، يتدلّى إلى أشجار الحديد. كمَ حَمَلْنا معًا هواءَ الفجر، وركضنا معًا في الشفق. كم سقطنا معًا، بعدَ أن أَسِنَ الكائنُ، وعانَيْنا أَمواجَ الحديد. كم نمنا معًا على سريرِ المهزلةِ والجرح. ألا لن يستجيبَ هواءٌ لهذا الليلِ، ألا لن يستجيبَ غيمٌ...

(والكائنُ؟ كم حملنا معًا أزاهيرَ الجسد، حَمَلْنا ترَفَ العيشِ إلى بوّابةِ الهرْجِ. كمْ صعدنا معًا سحاباتِ الألَق، واقتطفنا أُقحوانَ النور، آه، نَشَقْنا معًا هديرَ الأسلحةِ، وارتمينا على الدِفْقِ المغوليّ، وطفرنا من دمٍ إلى دمٍ. بكى الكائن، تذكّرَ فسوخَ الجسد. بكى واحتمى بالجذرِ. بكى واستحمّ في هدوءٍ صاخب، يضرب في حدودِ التَيْه.)

هكذا خرجتِ الجموعُ إلى حطام الجسد، خرجَ بردُ الترابِ وصقيعُ الجذور. هكذا ركبتِ الجموعُ أَحْصنةَ الخشب وحملَتْ سيوفَه، وراوَحَتْ في مدار رصاصيّ

ضيّق. طَفْرةً إثرَ طَفْرةٍ تَناءتْ عن الجسد. طَفْرةً إِثرَ طَفْرةٍ تقصّفَ الجسد. وها بيروتُ أرجٌ منسدِلٌ على جدار العيونِ، ترصدُ الخرافةَ. ها بيروتُ أَشرعةٌ من الزحفِ والتفكُّك...

وأنتَ، أيّها المهرّج الهاربُ من بقيّة الأقنعة، ألا يبقى من وجهكَ سوى هذا السطوعِ الكاذب؟ ألا يبقى سوى مطارقِ الحديدِ في طوفانِ الهباءِ؟ كانت النساءُ يأتينَ إليكَ بأَرحامَهُنّ، ويزرَعْنَ في وجهكَ بقيّةً من الأثَر... لكنّ الليلَ الآنَ يزرعُكَ في الصدى، فيتراقصُ

على حَفافيكَ غبارٌ وأقنعةٌ. أَلا لن يبقى وجهٌ بعدُ، لن تبقى ملامحُ. ألا لن يصمتَ رجْعٌ إلّا حاملًا هَوْلَ الخرافة...!

(انهضْ، أيّها الطفل، انهضْ. خلفَكَ امتدادُ المسافاتِ في الفراغ، وحولكَ الجَمادُ يتهدّلُ على الأقاليم، يكشف الليلَ لبقيّة المأساة. انهضْ، ففي عينيكَ بريقٌ لا يفهم التعبَ، وصمتٌ يخترقُ العطش، ويثقبُ البحر. أما زلتَ قارعًا رتاجَ الصباح، ناهضًا في الخواءِ اللاهوتيّ؟ أما زلتَ تفتحُ وجهَكَ للطيرِ على حدودِ السماء؟)

كان الرشأ الأعمى يندفعُ إلى المدى الأعمى.
وتخرج الجهاتُ ينابيعَ بُعْدٍ، تنثرُ خَطْفَ البهاءِ الكاذب.

(ألا لن يبقى لكَ، أيّها الطفلُ، سوى انسلاخِ الجذور. لن يبقى لكَ سوى تعبِ المسافاتِ وحنينِ الغاباتِ. لَكَمْ حلمْتَ بغاباتِ السوسنِ، باقتطافِ الخضرةِ من بحيراتِ الأشجار. كم حلمتَ بضجيجِ الوعول، وارتطامِ الحوافرِ في أعماقِ الوادي. ألا أَيّها الطفلُ، نَمْ، فقد أَيقَظْتَنا لنحصدَ الليلَ، ونرصدَ قناعَ الهباء...)

هكذا استَحَمَّتِ الجموعُ في بهائِها الكاذب، وارتطمَ الصدى بالحطامِ الجسديّ. هكذا انحسرَ الترابُ البارِدُ عن الترابِ البارد، ودخلتِ الشمسُ إلى جلدِ الليل.

هكذا

كانَ

انحدارُ

الأرض

إلى

رَفيفِ

الوهم،

ويقظةُ الجذورِ على غربةِ الماء. هكذا كان رحيل الطفل عن مدار الطفولة. تحوّلت الأرضُ إلى الشّرخِ؛ تمطّت على المساء الطَّوْطَميّ. تقلّصت الخطى؛ اختنقت. كانت النجوم وَراوِرَ حجّرتها عيونُ الصمت. كانت حدّقاتٍ في سماءٍ سوداءَ تحتضن السطوعَ الأخير أمام مَرْأى المهزلة...

والكائن...

ماذا يترك له هذا المدى المكسورُ كالزمن، هذا السطوع الباردُ الممتدّ إلى غربة الحجر؟ ماذا يزنّره سوى رنينِ المعدِن وقرقعة الحديد؟ والكائن، ذلكَ البهاءُ الخادع، ألا تترك له الجموعُ سوى بقايا وجهٍ وملامحَ مُتَعَثِّرَةٍ؟ ألا

يَحفّ أَهدابَه الزمنُ، ويخرجُ الرشأ، بعدُ، من عينيه؟ ألا لن يستطيع قادم رفع الخرافة، ألا لن يبقى قادم...

تباعدت خطوات المهرّج، واستغرقَ في الطحالب.
تفسّخ وجهه واندلعَ فيه الطلاء.

آآآآآهٍ،

يضربُ

في

هدوءٍ

صاخبٍ

حدودَ

التَيْهِ،

يقنّعُ فسوخَ الجسد. كم عانى الغبارَ، وصوّرَ دموعَ الأرض ولهاثَ الغاباتِ. كم رمى في الجذور قهقهاتٍ تنعى الهواء، وركِبَ النِثارَ على أهازيجِ المدارِ المحاصَر. آهٍ، تباعدَت خطوات المهرّجِ الكائنِ

في

الخواء

الـ

الح... جَ... ـرِيِّ...!

بعيدًا

بعيدًا

ترامتْ أعراسُ الهباء في وعور المفازات، واستكانَ الحجرُ إلى لغط المسافة. لكنّ النساءَ ما زلنَ باكياتٍ، حاملاتٍ إلى الإله المشيحِ أَرحامَهنّ، راقصاتٍ بيأسٍ غريب على نَعْيِ التراب وصَدْعِ المساء.

هناكَ... عندَ شفير المسافة، حيث
لا رعدَ ولا التماع، يتلوّى في مراكب الهيولى
المشوّهة حلمُ الطاغوت، مضرّجًا بعويل

الصدى. هناكَ، عند شفيرِ المسافة، يركض الطفلُ محاصرًا بإعصارِ الحديد، باحثًا عن البحيرات واللوتس، حالمًا بغابات القصب والأعشاب. هناكَ يسقط الطفل في تعب المسافات، مضرّجًا ببهاء الجموع الكاذب. أما كانَ في عينيكَ اغتسالُ الشمس؟ أما صارَ في عينيكَ ارتطامُ الصدى بالحطام الجسديّ؟ أيّها الطالع من رعشة السنابل، أيّها القارع أقنعةَ المهزلة، كنْ في الحلم صَخَبًا، كنْ بقيّةَ الانسلاخ، وليحترقِ الجسدُ – هذا الفضاءُ المسكين.

كانت الأشياءُ تزني، وحولها قطعانٌ من النشيج.
كان الجسدُ أَبَدًا ينفصلُ عن الجسد، والمسافاتُ تنهبُ الفراغَ. بَيْدَ أَنّ الجباهَ تسأَلُ عن بسالةِ الحاضر، والمساء يقهقهُ خلفَ أسرابِ القطا المهاجر. لَيَطْرُدَنَّ الوميضَ هذا الفراغُ الأخير، لَيَلْتَقِطَنَّ السوسَنُ وجهَهُ من تحتِ نعالِ المذبحة.

بيروتُ تهدأ تحت قرقعةِ المعدِن.
بيروت في مزرعةِ الحديد بعضُ أقبيةِ الجوع، والفراغُ ضبابٌ ممتدٌّ في الطبيعةِ الوحشيّة. وهناكَ، في غابة العراء،

يمتدّ صقيعُ النظر، ويرفلُ الصمتُ على حرير الجليد. هناكَ، في رخام العطش، تركض، أيّها الطفل، وحولَكَ أَلفُ أَلفُ درعٍ، وفي عينيكَ يلمعُ صليلُ السيوف. تركضُ كأنّ الصدى أَيقونةٌ لتَحَوُّلِكَ الوحشيّ، والهاجسُ أفق من الدمع والدماء...

وتبقى حولكَ الأرضُ نزيفًا،

تبقى حولكَ أَسرابُ القطا، والوراوِرُ، والكراكيّ هجرةً إلى صبرٍ رخاميّ. لكنّك صرتَ وحيدًا، تتصاعدُ في الأفق الدامي، ويفلتُ منكَ الطيرُ، تُفلِتُ رفوفُ

الكراكيّ واليمام، وأنتَ تتهدّل كالأحمق حول غدران الهباء، تمسح بدمعكَ الرخام، وتصطاد الشواهدَ العمياء...

بَيْدَ أنّ الكائنَ يرقص في ثياب التراب، يرصد النجومَ بنَهَمٍ غريب، وغابات القصب تستحيل حلمًا في ذاكرة ظمأى. كانت المدينةُ تقف مشدودةً في تواتُرِ القَرْعِ، والكائنُ يحمل طبلًا. ألا لن تبقى زَفرةٌ إلّا مَخيطةً برموش الفضاء، لن تبقى زَفرةُ أُمٍّ...

لَبّيكِ، يا بحيرةً من النطقِ المحجَّر،
لَبّيكِ يا شمسًا من الرعبِ والجليد.

كان الطفل يركض في رحيل الطفولة، مُنتحِلًا بكارةَ الألوان، هامسًا في الرماد: "غيبي أيّتها الخرافة، وَلْيَتَراكَمْ مَدُّ الهدوءِ على غيبوبةِ الحلم الساجي..." كان الطفلُ يجمعُ هتافَ الجسد، ويطاردُ الأحلامَ المتبدِّدَة.

أَلا فَلْيَهدإِ التائهون، وَلْتَرقُدِ المسافةُ عندَ أطرافِ الهاجس. وأنتِ، أيّتها الأرض، انكسري، انكسري... كانت عيناكِ تفلشانِ الجسد، وتلتقطان أَشياء الدمِ في مهَبّ الذهول. أَلا فلْيَهْدإ التائهون، فالبرقُ صامتٌ عند شفيرِ الألفاظ، والأرض حبلى، تُواصلُ الرقصَ في حلقاتِ الدمعِ.

سلامٌ للمهرّجِ الذي ينهضُ في الدماء،
سلامٌ للكائن المشدودِ إلى الطبل،
سلامٌ للأشلاء والجسد،

سلامُ... سلامٌ للأرض المفتَّتَة،

وَلْيَنْعَ الطوفانُ صمتَ الهدير، لِيَنعَ الجذورَ وغاباتِ السوسنِ والقصب... وأنتَ، أيّها الطفل الغارق في سهول الخواء والصقيع، لقد أَرَيتَنا الضبابَ ينسلخُ عن البهاء، لقد أَريتَنا الأَشلاءَ في حصادِ الرماد. ألا، أيّها الطفل، نَمْ، فقدْ أيقَظْتَنا لنحصدَ الليل، ونرصدَ قناعَ المهزلة...

ملحق أوّل: مشاهد الغابة

شجرة

أُرقصْ، أيّها الوروار، في فضاء الجرح، فالغيم حولكَ أسرابٌ من النحيب، والأرض قَرْعٌ طوطَميّ يدخل جسدَ الفضاء المريض.

كانت صواعقُ الحديد تخرج إلى عينيكَ، تاركةً خلفَ مسارها الرمادَ والأَسَن. كم رَكَضتَ في سماءِ العروق، محاصِرًا تاجَ المساءِ برعبِ اليقين. كم هَوَيْتَ في هذا الدمِ المحرور، ساحِبًا خلفَكَ غاباتٍ من الزفير الأخضر، ماحيًا آثارَ اللوتسَ من حناجر الدربِ اللاهثة.

شجرة

تكسّرت المرايا على جنادلِ الخواء،
واحتضنَ البردُ أبجديّة الصمتِ العاقر.

ألا كوني، يا بيروت، بابَ التحوّل، واشتعلي في قداديسِ العويل وأَصْباغِ المهرّج. ألا هاجري في هذه الغابة من الحطام الآدميّ، ولملمي ريشَ الحدإ المولوِل،
وكوني الوجهَ والقناع،
كوني الشرخَ والرأْبَ والكائنَ
يا بيروت!

شجرة

مطرقةٌ صـــمّاءُ تضـــرب الجذرَ الذي يخرج من الجسد،

والأرضُ حوار عقيمٌ في مفاصل الزوبعة.

شجرة

يخرجِ الكراكيّ من عين الماء. يُخاطُ إلى سماء الغابة الهاجعة. لكنّ غموضَ البهاء يترك على ردائه الثلجيّ بقعًا من أوار المسافات، ويفرش في خَفْقِ جناحيهِ سلاسلَ الغربة. أيّها الساكنُ في الحلم البعيد، كم هاجرتْ فيكَ حشرجةُ الغاباتِ وأنينُ المياه، كم هاجرَتْ فيكَ الصلواتُ والقداديس...

واللوتس،

أَما كانَ يأتي إليكَ متوّجًا بحنانِ الماء؟ أما كان يرتدي خَفْقَ جناحَيْكَ، ويُباهي في فحولة العشب؟ كان اندفاع الرَّبربِ سكينة صاخبةً تعبرُ عينيكَ وهي متّجهة بالأشياء إلى حضن الأرض –

يخرج الكراكيّ،
لكنّ الصدى يعيده إلى سلاسل المساء.

شجرة

أيّها القطا، ماذا تخبرنا عن أرض ضاعت منها الثلوج، وانحجرت فيها الأشياء هاتفة لارتحال السطوعِ؟

كنتَ في هوّة الانحدار تتلاشى على محطّات الفجيعة، والأرض حولكَ مهرجان رهيب من البهاء الصريع. كنتَ في مفاصل الزوبعة هتافًا سَحيقًا، يحلم بالبراري، ويلجمه الحلم الخَؤون...

أيّها القطا،

كم عذّبْتَ هذا الجرحَ المفتوح!

شجرة

يخرج الليلُ من الجذور، والأشياءُ تهتفُ لاندحار الأشياء؛ غيرَ أنّ اللهاثَ يندفعُ حاضنًا عُهْرَ العطش الأبديّ، والنساءَ يستعرضْنَ غشاوةَ الكائن، ويتحسّرْنَ على غيابِ الذكَرِ... كُنّ هاتفاتٍ خلفَ مَدٍّ من الجليد، يقُدُّ صراخُهُنَّ عويلَ الورورِ المهاجر...

هكذا تخرج البهجةُ الغامضةُ من السطوعِ الأعمى، ويَسْتَأْثِرُ الحجر باختلاجاتِ النبات. هكذا تنسدلُ المسافةُ على المسافة، ويفقد الكائنُ قبّعةَ السطوة.

وداعًا أيّها المدى الحديديّ،

لقد شيّعناكَ بالخواء الدامي، لقد طمَرْنا عويلَكَ بالفجر المحتقِنِ داخل ضلوعنا النازِفَة.

شجرة

يلتمس الرماد مسارًا في بطن الأرض، محاصِرًا أَلَقَ الغصونِ بوجْدِ الليل الباكي. ينقر الرمادُ حافةَ السماء، ويستيقظ "الغامض" في حلّة عرجاء...

يبقى الرمادُ داخل الجذْر،
يستقطبُ المجاعةَ،
ينحدرُ
يَنحدرُ

حتّى

آخرِ

البكاء...!

شجرة

الأرض تقرعُ صدرَ الكائن،
والمدى يوقظ الغشاوةَ ويغزل الليل –

تُرى،
ما الذي يختلجُ داخل هذا الرحم الأسود؟

شجرة

في طرف الغابة تخرج الكائناتُ الليليّة، تقرع حفيفَ الأوراق على شُعُبِ الخريف، تلملِمُ أَسمالَ الصدى في ثغرة الهدوء الكونيّ.

هناكَ... على الشفيرِ الأعمى، يقرع طبلُ الجنونِ القتيلِ، إذْ تتزيّا الأعراسُ بألوانِ الحرباء، ويستخرِجُ الواقعُ أَقنعتَه من تاج الليل.

هناكَ... في طرف الغابة، عندَ الشفير الأعمى،
حيثُ لا حِسَّ خارجًا من مدار الحديد، يمتدّ المرمر بحرًا
من الأَرَقِ الصقيعيّ، يلفّ بكارةَ الأرض.

ملحق ثانٍ: مشاهد المقبرة

شاهِدة

الظلّ ينمو على غصونِ الجليد المرمريّ، والليل ينسجُ تاجَه بخضمّ اللازورد. كان أرْدُوازُ الأشياء طقسًا ينغلقُ في الطوطم، يسحبُ هتافَ العظامِ خلفَ قوافل العويل. والبذورُ التي غلّفها ضبابُ الليل تنام منهوكةً داخل الرحم الأسود، مغلقةً على انتحارها البطيء نوافذَ الحشرجة والدموع...

الظلّ ينمو،
يمتدّ على غصون الجليد المرمريّ...

شاهِدة

هناكَ... في الليل الغارقِ عندَ أَعطاف المسافة، في الصمتِ الهاجعِ تحت جليدِ البحيرات المرمريّة، هناكَ... في أُفق السديم الأبيض، ينام الهدوءُ المسكون برعب الأسلحة. والطيرُ الغافي على ثوبِ المفازات يقرع الصمت، حاملاً في ريشه تَرَهُّلَ المدى، ورائحةَ الصنوبر والسنديانِ النائحَين.

هناكَ... في هبوب المسافة البيضاء، يتناسخ الكائن، حاملًا بين دموعه طَلَّ الأرجوان المفقود.

شاهِدة

وردةُ الأرض تحتضن الترابَ، تزحفُ على أعمدة الهبوب، والطِّلَّسْمُ المتروكُ على المداخل يترصّد الشموسَ القتيلةَ.

ثمّة سيف ينكسرُ على ثلوج النظَر،
يُغويه هبوب منطفئ،
والأرض حديقةٌ من الأحجار تزرعُ الحَتَّ،
وتحصد الأقنعة.

شاهِدة

تستفيق الذكرى على سديم الرخام، والليل يتدحرجِ فوق كُوّةٍ بحجم الأفق؛ بَيْدَ أنّ الأرضَ تمسحُ المعجزةَ، والبحرَ ينكمش في قعقعة الحديد. وتستيقظ الوراورُ على سرير البكاء، يستيقظ الآسُ من هجرة الأقنعة، يَرْفو الكائنُ الأرضَ بالجرح، ويبعثر المسافة.

لكنّ وجهَكِ، أَيَّتُها الأرضُ، يبقى في قلبي، مَطْلِيًّا بأعمدةٍ من العويل، محبوكًا بمآتمِ الكرزِ الوحشيّ.

ويعصف، يرْهو على امتدادِ الرخام، حيث يَسّاقطُ الأفق ممزوجًا بالخديعة، يعلق بفؤوسِ الليل البيضاء، ويعوي بين هذه السنابل المملوءةِ بالجوعِ والدم.

شاهِدة

كان الهواء ينسحبُ، والهباءُ يتناثر على رصائف الذكرى. اخرجْ، أيّها الطوفان، من فضائكَ الحديديّ، وَٱزْرَعْ في حقل هذه المسافة المعدِنيّة. غيرَ أنّ الصدى يحجب الصوَر، وقلمَ الأعاصيرِ ينبجسُ صامتًا، صامتًا. اخرجْ، أيّها الطوفان، وَلْتَتَرَنَّمْ حولكَ الأشياءُ مع اختناق المسافة وانحسار المفازات، وَلْيَنطَلِقْ رَبرَبُكَ الأبيضُ مكسِّرًا هدوءَ المسافة، ماسِحًا منها هذا الكائنَ الأبلهَ.

لكنّ القرمزَ الملتهبَ يخرج من مسامّ الانتظار، وفحولة الأرض تنام على سرير العشب الميت. ألا اصحُ، أيّها الطفل، وحدّقْ: لقد تهافتَ حبرُ الدموعِ في أرصفة الصوّان والدماءِ، وامتدّ عقربُ المساء.

أَلا اصْحُ، أيّها الطفل،
لقد تلبّد جرحُ المساء،
وانثقبَ التاريخ.

شاهِدة

ضباب الأرض يخرج من فاجعة الأحجام، يطرّز الجرْدَ بالوجوم، وينام تحت أغصانِ الأرزِ تعِبًا.

آنَ يخرجُ القمرُ اللاهِبُ من أعصار المعدِن، ويجوع النورسُ إلى امتداد البحر، تعانق الأرضُ هوّةَ القناع، ويهبّ النفير من الخواء الخواء...

آآآآآهٍ،

هذا المساء القاسي الذي

يُخاطُ إلى قميص الفضاء الأسود...!

شاهِدة

نَسْلُكِ الأبيض الثابتُ يُضرم معي السكوت، ورحيلُ الأشكال يتكسّر على القطيع المرمريّ. وها هي ذي بقيّة الصور تتصاعدُ في انكسارات الحنين على تاج الليل. كأنّ الأرضَ في نسيجها الغامض تتّشِحُ بستارِ الرماد، وتصقل وِشاحَ المسافات بحبرها.

والمهرّج،

ذاك الوجهُ الهائمُ الملوِّحُ من نافذة الغربة الكونيّة، يطرقُ بابَ السديمِ الأَبيض، ويدفع الوميضَ المقهورَ إلى حشاشةِ الطَعْنِ الداكن. كم عانى غبارَ المفازة، كم اقتطَفَ الدمعة، وانحدرَ بين الرمش والرمش، بين القطرة والقطرة. لكنّ الأشكالَ سحبَتْ أَختامَها من عينيه، وزنّرتها بشريط القطعانِ المرمريّة البيضاء.

ألا، أيّها المساء القاسي،
صِرْ في صلَفِ الدروعِ
سطوعَ الكوكبِ الأخير.

شاهِدة

لَبّيكَ، أيّها البدرُ الساقطُ في لهاث البرْدِ،

لَبّيكَ، أَيُّها الصاعدُ في الحشرحة، أَيُّها الرامي جذورَ النباتِ في أَلْيافِ الرماد. نحن لمْ نُباركْ إلّا الحِرابَ المسرَّحَة؛ نحن لم نتركْ إلّا العظامَ والخرابَ والضباب.

لَبَّيْكَ، أيّها الوردُ الراحلُ في المعدِن.

لقد هجَعنا في الفجاءة، وَالجِينَ انحناءاتِ الأشكال. لكنّ السّرى ما زال عابرًا أَعضاءَنا، تاركًا في قَرْعِ المهرجانِ جلجلةَ المذبحة.

لَبّيكَ، يا بَحرًا من الصقيعِ الأبيض.
لَبَّيْكَ، أيّها البجَعُ المرمريّ.

شاهِدة

كان قرنفل الشرارات يدخل خواتم "الغامض"، والشوك الطالع من مفاصل الزوبعة ينفخ الأقنعةَ في مدار المهزلة.

وتخرجُ، أيّها الرشأ، من هَمْسِ العشب. كم كُنْتَ عندَ حدود الأسطورة تغيبُ في وهج اللهاث. لَتَرْقُصَنَّ حولكَ النيرانُ في الزفير، وتَنبَلِجَنَّ الخُيَلاءُ من وَميضِ

الاغتصاب. أَنتَ الصورة الوحيدة لِشفقِ الحنين، أَنت الأفق الوحيد أمام السياجات المترامية حول مدرا الخرافة.

ألا أيّها الرشأ،

كنْ قهقهةَ الدم النازفِ

بطيئًا

بطيئًا...

شاهِدة

أَيّها الخطّافُ الأبيض، أَنت وحدَكَ الساحبُ معي حَسراتِ النبات. أنتَ مجاذيف الصوتِ البعيد الراحل في ثلج المسافات... أنتَ، أنتَ وحدكَ تَرى الطفولةَ تحترق في المهزلة، تطلعُ من هدير الأقصى، من وعي المكان المسكون بالأسلحة والحديد.

أَيُّها القارعُ شمسَ الزحف العاقر، التاركُ في سَهْوِ الأَنواءِ حريقَ الفراغ، لِيَكُنْ هذا المدى حولكَ قارّةً من

التعب، وَلْتَهْدَإِ الجَنادلُ الضاربةُ في الفراغ الصفيق. لتَكُنِ النساءُ قادماتٍ إليك، حاملاتٍ أَبواقَ الرماد إلى الجذور، مُلَمْلِماتٍ بقيّةَ الفحولةِ في خصاءِ الأفول... ألا أَيُّها الصاعِدُ من دمعِ الخزامى وأثداءِ اللهبِ المجنون، أَلا قُلْ: كان الهواءُ رَخيصًا؛ كانت جِراءُ الغيمِ تعوي هاربةً؛ كان الحصارُ قدَرَنا في وباءِ العمى والصمت.

ألا أيّها الخطّاف الأبيضُ قلْ معي:
"أنا الصدى الذي يلوّح لغصونِ المساء،
أنا الطفلُ المصبوغُ بالجوع،
أنا باب المهزلة."

_ ملحق ثالث: مزمور الذي لا اسمَ له

أيّتها النبوءة، كم نسجنا أحلامَنا على الموج، قبلَ انبلاجِ الدم الصخّاب. كم ركضنا معًا، نقطفُ نجومَ اللوتس من بحيرةِ السماء. كم نشرنا هَرْجَ الصباحاتِ وهَرَجْنا... لقد شهدَ الطيشُ اندحارَنا أمام قوائمِ المهرّج الطفل. لقد شهد الطيشُ اشتعال المهرّج في أودية الصوّانِ والحديد...

وأنتَ، أيّها الضارب في ضباب المدى، يا مَنْ لا اسمَ له، تخرج من عيونِ الفضاء وجِلْدِه، من عيونِ الأرضِ وجِلْدِها، تَشْطرُ الجسدَ، وتختمُ الكائنَ بالدم المحرور...

لقد شاهدتُ ولادةَ "الغامضِ" فينا، شاهدتُ الولادةَ في أقصى عُتُوِّها، وانحدرتُ انحدرتُ، شيئًا فشيئًا، إلى الظنِّ، إلى الأفكار المحمومة...

رأيتُ "الغامضَ" يمسحُ دموعَ النبوءة، ويزرعُ في الزمن فِخاخَه. رأيتُ النساءَ يركضنَ، وقد فقدْنَ اسمَهُنَّ، يعانقْنَ الهبوبَ الأعمى. رأيتُ

الأرضَ
تنشقُّ

عن

ثوبِ
الكائن،
تتبرّك في الحديد، تزحفُ نحو رخامِ الفكر المقفر.
رأيتُ الخرافةَ تدخلُ جرحَ "الغابة"، خِلْدًا يغلقُ على نفسه أبوابَ المدى، وينحجرُ في ظلمته الأبديّة.

لَبّيكَ، أيّها الحاضرُ. كنْ هجرةً في الرماد. كن النشيجَ يكتب بحبر الدموعِ أسطورةَ الجموعِ المنتحِرة. كنِ الأباطيلَ في أقنعةِ بيروت، وَلْتَلْبَسْكَ هذه السائمة...

(كان الدم يلوّح للبعلِ المفقود، والسماءُ تنسج ظلالَ اللعبة. كان الطفلُ يركض بين الحصى، يأوي إلى نَتنِ الليل، ويرفعُ الأحابيلَ والأقنعة. كان باكيًا بين جذور الرماد، يعضّ الرخامَ الأبيض، ويرفعُ طِلَّسْمَهُ الجديد!)

طويلًا

طويلًا

تنحدر

الأرض

في الصراعِ المثْخَنِ بالهزائم،

تدخل أحشاءَ الجرح في عيونِ الجهاتِ التائهة؛
ويبتهج المساء حول مائدة "الغامض". أَلا ٱنحدري، أيّتها الأرض، في انهيار الجهات، وَلْيَتَمَدَّدْ في أَحشائكِ الحديدُ والمدى المعتِم.

سلامٌ لكِ أيّتها الأرض،
يا طَفْحَ الرمادِ في سلالمِ الدم والنشيج،
يا أسطورةَ المهزلة.

(كُتِبت القصيدة بين ٢٥ آب ١٩٨٠ و١٣ شباط ١٩٨١)



هكذا خرجتِ الجموعُ إلى حطام الجسد، خرجَ بردُ الترابِ وصقيعُ الجذور. هكذا ركبتِ الجموعُ أَحْصنةَ الخشب وحملَتْ سيوفَه، وراوَحَتْ في مدار رصاصيّ ضيّق. طَفْرَةً إثرَ طَفْرةٍ تَناءتْ عن الجسد. طَفْرَةً إِثرَ طَفْرةٍ تقصّفَ الجسد. وها بيروتُ أرجٌ منسدِلٌ على جدار العيونِ، ترصدُ الخرافةَ. ها بيروتُ أَشرعةٌ من الزحفِ والتفكُّك...